٨ – الحقيقة الغائبة

أثناء الليلة التي يرقد فيها "غريب" على فراش المرض يجتر الذكريات، كان العمدة "دياب النمر" يفكر في الخلاص من الشراكة معه، لأنها جرت عليه وابلاً من السخرية، كما أن الهدف من مشاركته في مشروع مزرعة الألبان، كان بقصد غسل الأموال التي جمعها جمعًا من تجارة المخدرات، ومن بقايا أعمار المدمنين، حتى يدرأ عن نفسه الشبهات العالقة بمصدر أمواله.

يتهافت البشر المغيبون في القرى، والكفور، والنجوع على الكيف كأسراب الجراد، التي تهبط على الحقول فتلتهم ما بها من زرع، فتتحول الأرض الخضراء إلى ساحة جدباء، وهكذا تحولت العقول بفعل السموم إلى أوكار للخواء والضياع، فقد ذهب الحياء عن المدمنين، بالماضي كانوا يستترون من الناس عندما يدخنون السجائر، أما اليوم فيشربون المخدرات، بلا خجل، ويدخنونها في وضح النهار بالطرقات، وفي الأفراح، وفي جلسات السمر، ونظرًا لضيق ذات اليد، تحول معظمهم نحو مخدر البانجو لرخص سعره، فهو يشبه الملوخية الجافة.

يحفظ القرويون والفقراء أوصاف مخدر"البانجو" كما يحفظون أبناءهم، وكانوا يفحصونه كالخبراء المتخصصين، فصنفوه إلى نوعين أحدهما يميل إلى الخضرة، وسعره أرخص، أما النوع الآخر يميل إلى الإصفرار حيث تكون نسبة الأزهار فيه أكثر وبالتالي فإن تأثيره أقوى وسعره أعلى نسبيًا، وكان لكل صنف زبائنه.

يجلس العاطلون يتسكعون على النواصي في أرجاء القرية، فيخلطون البانجو بالتبغ، لتدخينه ويطلقون على "سيجارة البانجو" اسم"الصاروخ"،

وعندما يشعلون هذا الصاروخ المزعوم تنبعث منه رائحة تشبه رائحة البروتين المحترق، أو رائحة شعر الماعز.

كان "دياب النمر" كتاجر مخدرات محترف يقسم البائعين لينتشروا في أرجاء المحافظة، كل بائع يتحرك نحو الشريحة المناسبة، فيباع "البانجو" في الأرياف الفقيرة، و"الحشيش" للمدمنين الأثرياء، و"الأفيون" للمتمرسين في الكيف، أما الهروين لطلاب الجامعات، ولم ينس الرجل طبقة الحرفيين، فمدهم بالحبوب المخدرة، مثل "الترامادول" الذي يستخدم كمسكن قوي ومخدر للآلام، خاصة التهاب المفاصل والسرطان، وغيرها من الحالات الشديدة، بيد أن المنحرفين درجوا أن يتعاطونه كمخدر لأغراض عدة.

كان تربح المال من تجارة تلك السموم هو كل همه، وكان ذكاؤه الشديد يجعله فوق الشبهات، فلم يكتشف الأمن أو أهل القرية أمره، وكان يتعمد أن يروج الشائعات حول مصدر ثروته، تارة بأنه عثر على كنز، فتطير الرواية في القرية كما الريح، وتارة يقوم بشراء وبيع الأراضي الزراعية لغسل أمواله.

بدأ "دياب النمر" مشواره في تجارة المخدرات منذ صباه، في البداية كان يقوم بتوصيل صفقات المخدرات من المهربين إلى التجار، وذلك بمدينة الإسكندرية، وظل على هذا الوضع حتى اشتد عوده، وعرف كل أسرار المهنة، حتى وثق فيه "فهد السكران" أحد كبار تجارة الصنف بمنطقة العجمي، وكان رجلاً بشرته شديدة البياض، وقلبه شديد السواد، جسده ممتلئ، وكرشه يمتد أمامه بضع قبضات من قبضة اليد، ويأخذ نفسه بصعوبة، ويبيع نفسه بالمال، ولا يعنيه سوى جمعه.

وابتسم الحظ لـ "دياب النمر" عندما حاز على ثقته، وأصبح من رجاله، واختفى العمدة الوضيع مستترًا في خبثه، ولا يعلم أحد عنه شيئًا سوى بعض كبار الموزعين، والضالعين في الكار من التجار.

وكعادته عند الخصومة كان يفجر، فيبطش بأعدائه أشد ما يكون البطش، ففي بداية شبابه دارت معركة حامية الوطيس بينه وبين صديقه القديم

"سرحان الأعسر" للفوز والزواج من الحسناء "فاتن"، فنصب الرفيق الفخ لرفيقه، وللخلاص من هذه المنافسة التي كانت في غير صالحه، فكر ودبر، بأن زج "دياب النمر" في طريق منافسه بعاهرة جميلة أغوته حتى صار رفيقًا لها، يلتقيها باستمرار في منزله، وللقضاء عليه أكمل حيلته بأن أبلغ عنهما مباحث الآداب، فضبط متلبسًا في أحضانها، وبات مفضوحًا بها في كل مكان، فترفض كل الأسر مصاهرته، وهذا ما أفسح أمامه الطريق لاحقًا، للفوز بزوجته "فاتن".

كان "سرحان الأعسر" أسودًا سواد الغراب، طويلاً ذا ملامح إجرامية، شديد العناد، بين حاجبيه فوق الأنف بقعة سوداء بارزة في حجم حبة القمح، ويطلق المصريون على هذه البقعة اسم "حسنة"، بيد أن هذه البقع لا علاقة لها بالحسنات أو السيئات، وتعرف علميًا باسم فرط التصبّغ،أو فرط إنتاج الميلامين، ولكن كل شعب يطلق عليها اسمًا حسب عادته.

عرف عنه بالإسكندرية الشراسة في الانتقام، فلا فرق بين سواد قلبه، وسواد بشرته، وبعدما سقط في الفخ، علم أن من دبر هذه المكيدة المحكمة هو صديقه "دياب النمر"، فعاش يجتهد ليرد له الصاع صاعين، دون جدوى، لأن غريمه كان شديد الحرص، ورغم أن الأيام دارت دوائرها، إلّا أن الصراع مازال معلقًا، ومازال خصمه اللدود من وقتها يسعي للثأر منه، كي يسترد منه "فاتن" لنفسه، رافضًا للأمر الواقع، فكلاهما أحبها لدرجة العبادة، وقد يزيد، ولا أحد يعلم مدى الغل المشتعل في صدر هذا الذئب الذبيح بشوقه، ضد الذئب الذي غدر به.

وكأن التاريخ يأبي إلّا أن يتكرر، فمنذ أن شهدت البشرية حادثة القتل الأولى من أجل امرأة، عندما قتل قابيل أخاه هابيل للفوز بزوجته، لم يتوقف القتل إلى اليوم من أجل حواء، وأصبح "سرحان الأعسر" هو قابيل اللحظات أو الأيام أو الشهور القادمة، فقد عاش يطلب عمر غريمه من أجل أن ينتزع من تحته شريكته، هذا الصراع الأبدي يشتعل في كل دقيقة، ومع كل صباح يولد قاتل من أجل امرأة، ويرحل مقتول بسببها، وهي تتنقل في حالات كثيرة بين ظالم ومظلوم، أو وغد، ومجرم كما التراث، كأنه كتب على وجنتيها أن جمالك كلما

ازداد سوف يقطف ما بقي من أعمار الرجال، لتراق الدماء الطاهرة، وغير الطاهرة كقربان على مذابح الرغبات الملتهبة، تبًا لهذا الجمال الذي يدفع إنسان للخلاص من إنسان آخر، فلا يوجد على وجه الأرض ما هو أعظم من قدسية الروح البشرية، التي تسفك على أيدي البغاة في مشارق الأرض ومغاربها، ظلمًا تارة، وعدوانًا تارات أخرى.

كان القاتل كالقدر الذي يطلب ضالته، ومنذ أكثر من عشر سنوات وهو يتتبع خطوات خصمه، من خلال عيون يحركها بالمال لتخبره بعدد أنفاسه، وكلما فشل في حصاد عمره مرة، يشتد عزمه وإصراره في مرات متتابعة، وكانت الخطة المرسومة هي الخلاص منه أثناء تواجده لعقد الصفقة السنوية مع مسئول التوزيع لحصص المخدرات، وهو أحد صبيان "سرحان الأعسر"، الذي أصبح أكبر تاجر للكيف في البلاد، وقد رتب للجريمة كي تبدو قضاءً وقدرًا، وذلك عندما يقضي "دياب النمر" بضع أيام في الخريف من كل عام، كعادته بأحد الشاليهات المستأجرة بالساحل الشمالي، حيث يتم في هذا اللقاء تحديد حصته من المخدرات لعام قادم، ويتسلمها الوكلاء على عدة مرات، بداية من شهر يناير في السنة الجديدة.

وقد خطط للخلاص منه حرفًا، عن طريق إتلاف محبس أنبوبة البوتاجاز، حتى تشعل النار في المكان عن بكرة أبيه، حيث يوجد أربع أنابيب بالشاليه، إحداهما لسخان الغاز، والأخرى للبوتاجاز، وأخريتين احتياطيتين، ورتب لهم أن يشتعلوا في آن واحد، وذلك بعد أن يرش المكان بنوع من البودرة التي تساعد على الإشتعال. كانت بشاعة التخطيط للقتل تدل على خسة القاتل، وهذه الهمجية بالغة التعقيد لدى تجار السموم كافة، ففي هذا العالم المنحرف، لا توجد أخلاق، ولا ضمائر ولا قيم.

ربما قد نسي "دياب النمر" شراسة الموقعة القديمة، ورغم حرصه، فقد ظن أن الزمان آذاب مرارة الماضي إلّا أن المهزوم بالغدر لا ينسى ثأره، ويسعى لاسترداد ما يعتقد أنه قد سلب منه بالغدر، وتضخمة رغبة الانتقام لدى "سرحان الأعسر"، خاصة بعد أن علا شأنه وأصبح نقيبًا لتجار الكيف.

واليوم، وفي هذه الليلة الظلماء، خرج "دياب النمر" عن ثباته هو الآخر، فبات يفكر في القتل، كعادة المجرمين العتاة، وأصبح كل همه الانتقام من "سيف جاد" الذي دشن حملة على "الفيس بوك" للسخرية منه بصفحة القرية، كان ينوي الخلاص منه ثأرًا لهيبته، لأنه سوف يدفعه للانسحاب من مشاركة "غريب" في المزرعة، مما يضيع عليه فرصة جيدة لغسل أمواله.

وقد جرى العرف في عالم الكيف على استشارة الكبير في مثل هذه المسائل الشائكة، حتى لا تنزلق الأمور إلى ما لا يحمد عقباه، ولذا خرج قاصدا الإسكندرية، حيث فيلا كبيرة "فهد السكران" الذي استقبله في بداية الأمر بترحاب، بيد أنه انقلب عليه ساخطًا عندما علم بفكرته المجنونة، فجريمة القتل ربما تقود رجال الأمن نحو كشف المستور، فزجره ونعته بأبشع الصفات، وربما لأول مرة يحتد عليه، لأن سقوط أحد أفراد العصابة ربما يقود إلى اصطياد الباقين، وهذا في جرائم القتل وارد، بسبب جدية التحقيقات، وأمره بعدم التفكير بهذه الطريقة مرة أخرى، فامتثل الثعبان لكبير الأفاعي، كما هي عادة العصابات العتيقة في الإجرام.

أما عن سخرية أهل البلد منه فقد نصحه بتجاهلها، وبسرعة فض الشراكة مع "غريب"، إلى حين تدبير الأمور، والتمكن من وقف حملة الهجوم عليه، عبر صفحات الفيس بوك، فربما يكون الحل عند صديقه المهندس "ضياء"، فهو من مدمني الأفيون، وقد تكفل "فهد السكران" بمده بالكيف مجاناً، فهل سينجح "ضياء" في إيجاد الحل؟

عاد "دياب النمر" إلى القرية برشده الذي كاد أن يفقده، وظل ينتظر الفرج، كما وعده الكبير، ولكن من أين يأتي هذا الفرج ؟ والقرى المجاورة تتناقل التعليقات الساخرة في كل مشاركة على شبكات التواصل الاجتماعي، فقد ملأت النكات بعضًا من الفراغ في حياة الشباب الهائم في الفضاء الإلكتروني، وصنعوا جواً من السخرية القاتلة، فقرر أن يعاقب "سيف جاد" بجره نحو الإدمان ليكون أضحوكة كل من "بكفر الهوى".

وفي اليوم التالي اتصل بإحدى بنات الليل، وقابلها في شقة استأجرها لها في القاهرة، وطلب منها أن تطلق على نفسها اسمًا حركيًا جديدًا، وذلك حتى لا يعرفها أحد فيما بعد، وقد أطلقت الماجنة على نفسها اسم "دلال الطويل" على صفحتها بالفيس بوك، وذلك لنصب الفخ، واستدراج "سيف جاد" وكانت "دلال الطويل" الوهمية فتاة ثلاثينية رشيقة، ذات ملامح غربية، جسدها نحيل، وعيونها خضراء فاتنة، ومتحررة إلى أقصى ما يكون التحرر، كما أنها متمرسة في استخدام الفيسبوك، واصطياد الرجال، والشباب، وقد اتفق معها على كل التفاصيل.

وفي المساء عاد "دياب النمر" ودخل غرفته مرهقًا لينام لعله يهدأ، كانت الأفكار المتصارعة تتعارك في أم رأسه، والسخط على مواقع التواصل الاجتماعي يشعل ثورته، فاستقبلته زوجته "فاتن" غاضبة، تعنفه وتلومه على خروجه دون علمها:

- فاتن : لماذا تأخرت هكذا؟

- دياب: كنت أبحث عن حل لورطتنا مع غريب.

-فاتن: وهل وجدت الحل؟

-دياب: نعم، فض الشراكة، لم يطلعني"غريب" على تفاصيل المشروع، كل ما ذكره أنه مشروع حديث لإنتاج الألبان.

- فاتن: أنا لم أسمع من قبل عن مزراع للجاموس في مصر تعمل بالموسيقى، ولكن تريث، ربما استمرارك معه كان أفضل.

- دياب: هذا قرار عمك، وأنا لن أخالف قراره.

كانت في قرارة نفسها ترفض فض هذه الشراكة، لأنها على غير هواها، ولكنها كظمت غيظها، وأخفت مشاعرها، وامتثلت للأمر.

كان "دياب النمر" لا يجرؤ على إغضابها، لأن عمها هو "فهد السكران" نفسه،

ورب نعمته في تجارة الكيف، كما أنه قد تزوجها عن حب جارف، وقد سبق أن دقت عنقه برفض الزواج منه عدة مرات، تعالياً عليه، لأنها كانت حاصلة على دبلوم التجارة، بينما هو لم يحصل إلّا على الإعدادية، بيد أن ثراءه السريع قلب دفة الأمور لصالحه، فأطاح بريق الذهب بحججها في محيط أسرة لا تقيس وزن البشر إلّا بالمال.

كانت "فاتن" امرأة رشيقة، رَبْعَة، بيضاء البشرة، وثديها الشامخ متماسك، ومستدير، تقف قمته فوق عضلات الصدر تشعل نار اللوعة في وجه الناظرين نحوه، فلا يستطيع الذكور مقاومة نداء الرغبة عندما يشاهدونه، كانت ذات جسد مثير للشهوات، وتمتلك مؤخرة بارزة متناسقة، تغري من يراها، فتشعل الشوق الذي لا ينطفئ إلّا بالوصال، كانت تسيطر على "دياب النمر" بأنوثتها الطاغية، وعقلها الماكر، وبعد أن فشل السايس أن يروض مهرته الجموح، ركبته تحرك اللجام كيفما شاءت، فكان يحبو أسفل كعبيها كأنه الطفل الرضيع، يرتشف من أنهار الرغبة ما لذ وطاب، مقابل الخنوع الكامل. وبلغت ذروة هذا التحكم عندما أنجب منها ولدين، الأول "هيثم"، وبلغ عمره اليوم ٢١ عامًا، والثاني "أيمن"، وعمره ١٠ أعوام.

كتب الملتاع لإشباع رغبته نصف ثروته لمعشوقته، وكان رهن أصابعها، تحركه كيفما تشاء، ولكنه لم يكن يعرف أنها تغرق بين أمواج الشوق الجامح عشقًا لرجل آخر، فقد خفق قلبها نحو الفتى "غريب" وكانت ترغب في أن تبلل شوقها بوصاله، وكان ذلك هو سر رفضها لإنهاء الشراكة معه، ورغم تجاهل الفتى لها مازالت راغبة فيه، وتحيا في الهوى تتجرع مرارة اليأس، والرجاء.

ألقى "دياب النمر" جسده على السرير منهكًا، فغط في سبات عميق، فوثبت من جواره نحو شرفة الغرفة، كي تستنشق الهواء لعل نار رغبتها لـ "غريب" أن تهدأ دون جدوى، كانت تتخيل أصابعه تتخلل خصلات شعرها، وشحمتي أذنيها، لتدور أنامله بحركات دائرية فوق صدرها الملتهب، فجأة تلتفت إلى الخلف، وتخبط كفيها بعنف فوق المؤخرة المثيرة، تكلم نفسها بصوت داخلي:

- ألم ير ذلك الوغد تلك المؤخرة التي تخلع قلوب الرجال، وهم ينظرون نحوها، من أين جاء هذا الرجل بمثل ذاك الصمود ؟ لم يرني أحد إلّا وأحسست بنار الشوق تأكله، هل سيعذبني هذا الفتى بذات النار التي أحرقت بها قلوب الرجال؟

تذكرت كيف كانت تشعل نيران الهوى، فيحبو خلفها الرجال صرعى يلتمسون الرضا، حتى في ليلة عرسها كاد كل المعازيم أن يأكلونها بأعينهم، فقد عُزم "سعيد بيك"كبيرتجارالكيف وقتها من قبل عمها، ليوطد علاقته به، وعندما شاهدها جن جنونه، وحتى يلفت نظرها نهض ينثر الأموال فوق الراقصة مما أذهل الحضور، وفي اليوم التالي ذهب ليقدم النقوط، فوضع ظرف به عشرة آلاف جنيه، ففرحت بالمال، وفرح زوجها وعمها بحضوره، فهذا يعني فتح أبواب تجارة المخدرات أمامهم على مصراعيه، وهذا ما حدث عندما نالوا رضاه، فمنحهم حصصًا إضافية في السوق، وعندما فتحت له "فاتن" ذراعيها، فأصبحوا بذلك من كبار التجار.

كان "سعيد بيك" على أعتاب الستين من عمره، نحيلا وأنيقًا، وعذب اللسان، خفيف الظل، عرف عنه الدهاء وسرعة البديهة، ورغم أنه رجلُ حريصُ، له سطوة في عالم المخدرات، ضربته المراهقة المتأخرة عندما رآها، لم يستغرق كثيرًا من الوقت حتى أوقعها في شباكه، فصليل المال جعلها تهرول نحوه، فجذبها كما يجذب المغناطيس الحديد، وبذكاء حواء لم يلحظ أحد هذه العلاقة، وظلت تزوره في منزله من آن لآخر، تمنحه نفسها مقابل المال تارة، ومقابل دعم عمها وزوجها تارة أخرى، وظلت هكذا حتى خفت بريقه، والتهمه الوهن لكبر سنه، فتركته مع آلام الشخوخة لتغوي غيره.

وعندما قرر زوجها التقدم لمنصب عمدة قرية "كفر الهوى"، كان حظه فيها ضعيفًا، نظرًا لهشاشة جذوره، ولكن عندما شاهدها المأمور معه دعاهما لمكتبه، ورحب بهما، وحتى يختلي بها طلب من أحد عساكره أن يصطحب "دياب النمر" لعمل فيش وتشبيه، وبعد خروجه عبث بنظراته في أنحاء جسدها يتفحصها بنهم بالغ، لاحظت من أول وهلة ذوبان الرجل فيها، ووعدها بالمساعدة في أن

تصبح زوجة العمدة إذا كانت التحريات في صالحه، بادرته قائلة:

- فاتن: دع مهمة التحريات لي.

- المأمور: كيف، تلك مهمة الشرطة.

- فاتن: سوف آتيك غدا بنفسي لأقص عليك كل سيرته في شقتك.

بُهت الرجل من جرأتها، كما أذهله جمال أنوثتها، وطاب له أنها قرأت أفكاره بسرعة، ودون لف أو دوران، كان المأمور فوق الأربعين عامًا، أسمر اللون، ذا شارب كثيف، متوسط الطول، عرف عنه أنه زير نساء، وتلك كانت نقطة الضعف فيه رغم كفاءته، وبعد أن ذهبت إليه عدة مرات، تم تزكية "دياب النمر" عمدة لقرية "كفر الهوى"بقلم الهوى.

وتكرر ذلك مرات كثيرة، دون أن يكتشف الزوج مجونها، فقد كان لكل منهما دور في عالم الانحراف، هي تكدس المال وتدبر بعض المصالح بثدييها، وهو يجمع المال من دماء المدمنين، ما أوجعها أن قاذفة الأنوثة فوق صدرها وفخذيها لم تصب "غريب" في مقتل، بل من قُتل في هذه الموقعة هي نفسها.

نظرت نحو السماء وقد أوشك القمر على الرحيل، فخيل لها أن صورة "غريب" في منتصف القمر، جلست على مقعد من خشب الزان تنظر نحو القمر متوهمة صورته في وسطه، فأمضت ما بقي من الليل تتبعه حتى غلبها اليأس، فنهضت والأشواق تلسعها، كما السياط الحامية، دخلت الغرفة يلعب برأسها مكرحواء، فأقسمت بينها وبين نفسها ألّا يفلت منها الفتى، إلّا مجندلًا بين أحضانها، غارقًا بفحولته في عسل الأنوثة الطاغية، وراحت تخطط لليوم الموعود.